تطبيق 02: نونية ابن رشيق

-أبيات النّونية:

كَمْ كانَ فِيها منْ كِـــرامٍ ســادَة بِيضِ الْوُجوهِ شَوامخِ الإيمانِ
مُتَعاوِنينَ على الدِّيانَةِ والـــتّقى للهِ في الإسْـرارِ والإعْـــلان
وَمُهَذَّبٍ جَمِّ الفَضائِــلِ بـــاذِلٍ لنوالـهِ وَلعِرْضِـــهِ صَـــوَّانِ
وَأَئِمَّةٍ جَمَعُوا الْعُلُومَ وَهَـــذَّبُـوا سنَنَ الْحَديثِ وَمُشْكِـلَ الْقُرْآنِ
عُلَماءَ إنْ سَاءَلْتَهُمْ كشَفُوا الْعَمَى بِـفَقاهــةٍ وَفَصـــاحَةٍ وَبَـيانِ
وَإذا الأُمُورُ اسْتَبْهَمَتْ وَاسْتَغْلَقَتْ أَبْوابُها وَتَنـــازَعَ الْخَصْـــمانِ
حَلُّوا غَوامِضَ كُلِّ أَمْرٍ مُشْــكِلٍ بِدليلِ حَـــقٍّ واضِـحِ البُرْهانِ
هَجَروا المَضاجِعَ قانِتينَ لِرَبِّهِمْ طَلَباً لِخَيْرِ مُعَرَّسٍ وَمـــغانِ
وَإذا دَجـــا اللَّيْلُ البَهيمُ رَأَيْتَهُمْ مُتَبَتِّلينَ تَبَـــتُّلَ الرُّهْبـــانِ
في جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ أَكْـرَمِ مَنـزِلٍ بَيْنَ الْحِسانِ الْحُورِ وَالغِلْـمانِ
تَجِرُوا بِها الفِرْدَوْسَ مِنْ أَرْباحِهِمْ نِعْمَ التِّجارَةُ طاعَةُ الرَّحْمـــانِ
المُتَّقـــينَ اللهَ حَـــقَّ تُقاته وَالعارِفينَ مَـــتكايِدَ الشَّيْـــطانِ

وَتَــرى جَبابِرَةَ المُلوكِ لَدَيْهِمُ خُضُعَ الرِّقابِ نَواكِسَ الأَذْقــانِ

لا يَسْتَطيعُونَ الكلامَ مَــهابَةً إلاَّ إشــارَةَ أَعْـــــيُن وَبَنـــــانِ

خافُوا الإلهَ فَخافَهُمْ كُلُّ الْوَرَى حَتَّى ضِراءُ الأُسْــدِ في الْغِيلانِ

تُنْسيكَ هَيْبتُهُمْ شَماخَةَ كُلِّ ذي مُلْكٍ وَهَيْبَةَ كُــلِّ ذي سُلــــطانِ

أَحْلامُهُمْ تَزِنُ الْجِبالَ وَفَضْلُهُمْ كالشَّمْسِ لا تَخْـــفى بِكُـلِّ مَكانِ

كانَتْ تُعَدُّ القَيْرَوَانُ بِــهِمُ إذا عُدَّ المَنــابِرُ زَهْـــرَةَ البُـــلْدانِ

وَزَهَتْ على مِصْرٍ وَحُقَّ لَها كَما تَزْهُو بِهِمْ وَغَدتْ علـــــى بَغْدانِ

حَسُنَتْ فَلما أَنْ تكامَلَ حُسْنُها وَسَما إِلَيْها كُـــلُّ طَـــــرْفٍ رانِ

وَتَجَمَّعَتْ فيها الفَضائلُ كُلَّه وَغَدَتْ مَحَلَّ الأَمْـــنِ الإِيـــمانِ

نَظَرَتْ لها الأَيَّامُ نَظْرَةَ كاشِحٍ تَرْنُو بِنَـــظْرَةِ كاشِــحٍ مِــعْيانِ

حَتَّى إِذا الأَقْدارُ حُمَّ وَقوعُها وَدَنــا القَضــــاءُ لِمُـــدَّةٍ وَأَوَانِ

أَهْدَتْ لَها فِتَاً كلَيْلٍ مُــظْلِمِ وَأَرادَها كالـــنَّاطِــحِ الــعيـدانِ

بِمَصائِبٍ مِنْ فادِعٍ وأَشائِبٍ مَمَّنْ تَجَمَّعَ مِـــنْ بَــني دَهْمانِ

فَتَكوا بـــأُمَّةِ أَحْـــمَدِ أتُــراهُـمُ أمنوا عِقابَ اللهِ في رَمَضـــانِ

نَقَضُوا العُهُودَ المُبْرَماتِ وَأَخْفَرُوا ذِمَمَ الإلهِ وَلَمْ يَفُوا بِضَـــمانِ

فاسْتَحْسنوا غَدْرَ الْجِوارِ وَآثَـرُوا سَبْيَ الْحَريمِ وَكَشْفَةَ النِّسْـوانِ

سامُوهُمُ سُوءَ العَذابِ وَأَظْـهَروا مُتَعَسِّفينَ كَوَامـِنَ الأَضْـغانِ

وَالمُسْلِمونَ مُقَسَّمـونَ تَنالـُهُمْ أَيْدِي العُصـاةِ بِذِلَّـةٍ وَهَـوانِ

ما بَيْنَ مُضْطَرٍّ وَبَيْنَ مُـعَذَّبٍ وَمُقَتَّلٍ ظُلْـماً وَآخَـرَ عـانِ

يسْتَصْرِخُونَ فلا يُغاثُ صَريخُهُمْ حَتَّى إذا سَئِـمُوا مـِنَ الأرْنانِ

بادوا نُفُوسَـهُمُ فَلَّما أَنـْقَذُوا ما جَمَّعوا مِنْ صامتٍ وَصـوانِ

وَاسْتَخْلَصوا مِنْ جَوْهَرٍ وَمَلابِسٍ وَطـرائِفٍ وَذَخـائِرٍ وَأَوانِ

خَرَجُوا حُفاةً عائِذينَ بِرَبِّـهِمْ مِنْ خَوْفِهِمْ وَمَصـائِبِ الأَلْوانِ

هَرَبُوا بِكُلِّ وَليدَةٍ وَفَطـيمَةٍ وَبِكُلِّ أَرْمَلَةٍ وَكُـلِّ حَـصانِ

وَبِكُلِّ بِكْرٍ كالمَـهاةِ عَـزيزَةٍ تَسْبي الْعُقـولَ بِطَـرْفِها الفَتَّانِ

خُودٍ مُبَتَّلَةِ الوِشـاحِ كأَنَّـها قَمَرٌ يَلـوحُ عـلى قَضيبِ الْبـانِ

وَالمَسْجِدُ المَعْمُورُ جامِعُ عُقْبَةٍ خَرِبُ المعاطِـنِ مُظْـلِمُ الأَرْكانِ

قَفْرٌ فَما تَغْشاهُ بَعْدُ جَماعَـةٌ لِصـلاةِ خَمْسٍ لا ولا لأَذانِ

بَيْتٌ بِهِ عُبِدَ الإِلَهُ وَبُـطِّلتْ بَعْدَ الْغُلُوِّ عِـبادَةُ الأَوْثـانِ

بَيْتٌ بِوَحْي اللهِ كـانَ بِنـاؤُهُ نِعْمَ البِنا وَالمُبْتَنى وَالْبـاني

أَعْظِمْ بِتِلْكَ مُصيبَةً ما تَنْجَلي حَسَراتُها أَوْ يَنْقضي الــمَلَوانِ

لَو أَنَّ ثَهْلاناً أُصيبَ بِعُشْرِهـا لَتَدَكْدَكتْ مِنْـــها ذُرا ثَهلان

حَزِنَت لها كُوَرُ الْعِراقِ بأَسْرِها وَقُرى الشَّآمِ وَمِصرُ والْخُرسانِ

وَنَزْعَزعَت لمصابها وَتَنَكَّـدَتْ أَسَفاً بلادُ الْـــــهِنْدِ والسِّنـدانِ

وَعَفا مِنَ الأَقْطارِ بَعْدَ خَلائِها مـــا بَيْنَ أَنْدَلُسٍ إِلى حُــلْوانِ

وَأَرى النُّجومَ طَلَعْنَ غَيْرَ زَواهِرٍ في أُفْقِهِنَّ وَأَظْلَمَ الْـــقَمَــرانِ

وَأَرى الْجِبالَ الشُمَّ أَمْسَتْ حُشَّـعا لِمُصابِـــها وَتَزَعْزَعَ الثَّـقلانِ

وَالأَرْضُ مِنْ وَلَهٍ بِها قَدْ أَصْبَحَتْ بَعْدَ الْقَرارِ شَـديدَةَ الــمَيَـلانِ

أَتَرَى اللَّيالي بَعْدَ ما صَنَعَتْ بِنــا تَقْضي لَنا بِتَواصُلٍ وَتَـــدانِ

وَتُعيدُ أَرْضَ الْقَيْرَوانِ كَعَهْدِها فيما مَضى مِنْ سالِفِ الأَزْمانِ

مِنْ بَعْدِ ما سَلَبَتْ نَضائِرَ حُسْنِها الْأَيْامُ وَاخْتَلَفَتْ بها فـــتَانِ

وَغَدَتْ كأَنْ لَمْ تَغْنَ قَطُّ وَلم تَكُنْ حَرَماً عَزيزَ النَّصْرِ غَيْرَ مُهانِ

أَمْسَتْ وَقَدْ لَعِبَ الزَّمانُ بأَهْلِها وتَقَطَّعَتْ بِـــهِمُ عُرا الأَقْـــرانِ

فَتَفَرَّقُوا أَيْدي سَبـــا وَتـــشَتَّتُوا بَعْدَ اجْتِماعِهِمُ على الأَوْطــانِ

1.مناسبة القصيدة:

في سنة 449هـ نقض أعراب هلال الصّلح المبرم سنة 444هـ بينهم وبين المعزّ (حاكم القيروان)، وأشعلوا نار الحرب وحاصروا القيروان بجموعهم وعاثوا في الأرض فسادا، يخرّبون ويسفكون الدّماء، فلم يرَ المعزّ بدا سوى الرّحيل، وترك عاصمة إفريقية نهبا في أيدي الغزاة، وخرج المعزّ بأهله إلى المهدية في حماية أصهاره من الأعراب، فدخل الهلاليون القيروان وقصور صبرة، فخربوا وقتلوا ونهبوا، وقاست العاصمة محنة تدمي القلوب، فاندثرت معالم القيروان البهية، وتشتّت معالم العلم والأدب، وتفرّق روادها الّذين كانت تحتفل بهم مساجدها ومدارسها، فخلّف ذلك أثرا كبيرا في نفسية أبنائها عامة، وشعرائها خاصة، فراحوا يندبونها بقصائد خلّدها التّاريخ، ومنهم ابن شرف القيرواني، الحصري، وابن رشيق صاحب أشهر مرثية وهي الّتي بين أيدينا.

2.تحليل القصيدة:

تعدّ القصيدة الّتي بين أيدينا مرثية بكائية جادت بها قريحة الشّاعر ابن رشيق القيرواني، أثناء خراب مدينة القيروان وهلاك أهلها على أيدي الهلاليين، فعصف به الحزن، فراح يعبّر عن هول المصيبة الّتي ألّمت به وبأهل القيروان.

تضمّ هذه القصيدة بين ثناياها ستة وخمسين بيتا شعريا، تعرّض الشّاعر فيها إلى وصف ألمه الشّديد بفقدانه أرض القيروان بلاد العلم والفقه والدّين، من خلال المقارنة بين ماضيها العريق المتحضر، وحاضرها المأساوي.

تبدأ القصيدة بالحديث عن المجد والتّطور الّذي كانت تعيشه القيروان في الماضي ثم تتدرج في تتبع مسار التّحول الّذي طال هذه المدينة وصولا إلى مرحلة الضّعف والانكسار، ويمكن الوقوف على ثلاث محطّات في المرثية، وهي كالآتي:

أ. القيروان في أوجّ حضارتها ومجدها وعظمتها:

أظهر الشّاعر في هذه المحطّة تحسّره على ضياع العلم والدّين بمدينة القيروان، بعد أن كانت منارة علم وفقه، فهو يرى خراب القيروان في هلاك العلماء والفقهاء، ويقدّم بذلك وصفا دقيقا لما كانت تزخر به مدينة القيروان من علماء وفقهاء، أناروا سبيل الإسلام، ومهّدوا به الطّريق لقلوب الناس كقوله:

كَمْ كانَ فِيها منْ كِـــــرامٍ ســـادَة بِيضِ الْوُجوهِ شَوامخِ الإيمانِ

مُتَعاوِنينَ على الدِّيانَةِ والـــــتّقى للهِ في الإسْــرارِ والإعْـــلان

وَمُهَذَّبٍ جَمِّ الفَضائِـــلِ بـــــاذِلٍ لنوالــهِ وَلعِرْضِـــهِ صَـــــوَّانِ

افتتح الشّاعر مرثيته بالأداة "كم" العددية ككناية عن كثرة من كان في المدينة من العلماء والفقهاء، فهم منارة المدينة لما قدّموه من خدمة للعلم والدّين، ومتى تمسّك قوم بدينهم وفقهوه، وأجادوا علمهم ودرسوه فلن يكون تشتيتهم وتفريقهم سهل المنال، وقد ركّز الشّاعر على تبيان وإبراز صورة القيروان العظيمة باستخدام أدوات اللغة الّتي تنفجر بطاقات إيحائية كأسلوب الحذف الّذي بدا واضحا في بداية المرثية، فنلحظ أنّ الكلمات (متعاونين، مهذّب) جاءت خبرا لمبتدأ محذوف تقديره الضّمير الغائب بصيغتي الجمع والمفرد (هم، هو) العائدان على الأئمة والعلماء، كما استعان الشّاعر أيضا بأسلوبي التّقديم والتّأخير تجذب المتأم صاحبها، وهذه الظاهرة هي تقديم عبارة جواب الشرط على عبارة الشرط والأداة، فقد مارس الشّاعر هنا، إرادته الشّعرية على مستوى التركيب ليضمن أكبر قدر من التأثير في المتلقي، سيّما أنّها تشيد بعلماء القيروان وفقهائها، فهم زهرة البلاد البهية، تفتخر بهم القيروان في كلّ منبر، وكأنّ الشّاعر هنا متلهف ومستعجل إلى بيان مكانتهم ودورهم في التّطور وتحقيق رقي الأمة وازدهارها.

زاوج الشّاعر في وصف مجد مدينة القيروان وعظمتها بين الأفعال الماضية والمضارعة ليرسم بذلك صورة تنقل القارئ بين مرحلتين مختلفتين؛ مرحلة القوة ومرحلة الضّعف.

ب. نكبة السكان:

تمثّلت النكبة الثانية للقيروان في نكبة السكان، وذلك ما عبّر عنه بصورة مؤلمة وصف الشّاعر في قوله:

فاسْتَحْسنوا غَدْرَ الْجِوارِ وَآثَــرُوا سَبْيَ الْحَرِيمِ وَكَشْفَةَ النِّسْــوانِ

سامُوهُمُ سُوءَ العَذابِ وَأَظْــهَروا مُتَعَسِّفِينَ كَوَامِــنَ الأَضْــغانِ

وَالمُسْلِمونَ مُقَسَّمــونَ تَنَالــُهُمْ أَيْدِي العُصــاةِ بِذِلَّــةٍ وَهَــوانِ

ما بَيْنَ مُضْطَرٍّ وَبَيْنَ مُــعَذَّبٍ وَمُقَتَّلٍ ظُلْــماً وَآخَــرَ عــانِ

عكست هذه الأبيات في مضمونها صورة سكّان مدينة القيروان المنكوبين، وما تعرّضوا له من تنكيل واعتداء من قِبل عرب بني هلال، فتوسّل في ثنايا هذه الأبيات إلى جانب الصور البيانية بعض الأساليب البديعية، كأسلوب الترصيع، كما توسّل التّشبيه ليرسم صورة حزينة تلخصها معاناة النسوة والأطفال، في قوله: خُودٍ مُبَتَّلَةِ الوِشــاحِ كأَنَّــها قَمَرٌ يَلــوحُ عــلى قَضيبِ الْبــانِ، صوّر من خلاله نكبة نساء القيروان الحرائر، وذلك من خلال إيجاد معادل موضوعي لها يتمثّل في القمر، وهي صورة تقدّم المعنى في صورة حسية تنبض بالحياة، وتزخر بالحركة.

ج. نكبة القيروان:

أحلّت بالقيروان نكبة عظيمة سنة 449هـ انتقلت بسببها من المجد إلى المأساة الكبرى، ويبدو ذلك واضحا في أبيات المرثية:

نَظَرَتْ لها الأَيَّامُ نـــظْرَةَ كاشِـــــحٍ تَزْنُو بِنَـــــظْرَةِ كاشِـــحٍ مِـــــعْيانِ
حَتَّى إذا الأَقْـدارُ حُـــمَّ وَقَـــوعُها وَدَنـــا القَضـــــاءُ لِمُـــــدَّةٍ وَأَوَانِ
أَهْدَتْ لَها فِتَاً كلَـــــيْلٍ مُـــظْلِمٍ وَأَرادَها كالـــــنَّاطِـــحِ الـــعيـــدانِ
بِمَصائِبٍ مِـــنْ فادِعٍ وأَشـــــائِبٍ مَمَّنْ تَجَمَّعَ مِـــــنْ بَـــني دَهْمانِ
فَتَكوا بـــــأمَّةِ أَحْـــمَدٍ أتُـــراهُـمُ أمنوا عِقابَ اللهِ فـــــي رَمَضـــانِ

يصوّر الشّاعر تغيّر الأوضاع وانقلاب الموازين، أين بدأت معالم القيروان وحضارتها في الانهيار، وبدأ مجدها يتهاوى، ويعبّر عن هذا المعنى باستعمال أدوات اللّغة الموسيقية، والتّركيبيّة، والتّصويرية، فجاءت القصيدة كلّها منظومة على البحر الكامل ذي التّفعيلات (متفاعلن متفاعلن متفاعلن) الّذي خدم أفكار الشّاعر وعبّر عن أفكاره، أضف إلى ذلك طول مقاطعه الصّوتية الّتي حقّقت للشّاعر غرضه المنشود.

يدرك المتأمل في الأبيات أنّ الشّاعر محبّ لوطنه ومتعلق به، ونفسيته منكسرة لما آل إليه ويبدو ذلك من خلال توظيفه لبعض الأصوات والمفردات الّتي عبّرت عن نفسية الشّاعر وجاءت الأصوات المطبقة مثل (الطاء، والصاد، والضاد) ليعبّر عن غضبه وسخطه على الواقع الأليم الّذي آلت إليه القيروان، وفي المقابل وظّف الأصوات المهموسة مثل (التاء، السين) ليعبر عن حزنه وشعوره بالأسى على المحنة الّتي أصابت أهل القيروان، وازدادت المأساة حدّة مع تدمير الجامع الأعظم (مسجد عقبة بن نافع)، وقد بيّن هول المصيبة بوساطة أسلوب التّكرار ليؤكّد أهمية هذا المكان المقدّس بالنّسبة له.

ويختم الشّاعر مرثيته في القيروان باستفهام غير حقيقي، غرضه التمنّي فهو يمنّي نفسه بالتساؤل عمّا إذا كان في الإمكان أن تعود القيروان إلى سابق مجدها وعزّها، فقد أصيبت في الصّميم، وعاث فيها المجرمون فسادا، وقد صاغ الشاعر هذا المعنى في أسلوب مجازي، عن طريق الاستعارة المكنية، في قوله:(أترى اللّيالي بعد ما صنعت بنا، وتعيد أرض القيروان كعهدها من بعد ما سلبت نظائر حسنها الأيام، أمست وقد لعب الزّمان بأهلها) فهي كلّها استعارات مكنية، استخدم فيها أسلوب

التشخيص، فأسند الأفعال إلى غير فاعليها الحقيقيين، حيث شبّه اللّيالي والأيام والزّمان، فيتساءل عمّا إذا كان بمقدور اللّيالي أن تعيد للقيروان مجدها وعظمتها، وجعل من الأيّام إنسانا يسلب الجمال والحسن، ومن الزّمان إنسانا يلعب ويغدر، وفي هذا نوع من التّشخيص للجمادات، وهي تعابير مجازيّة عبّر الشّاعر بواسطتها عن حجم المأساة والكارثة الّتي ألمت بالقيروان.

مثّلت مرثية ابن رشيق نكبة القيروان أحسن تمثيل، حيث أعطت للقارئ صورة واضحة المعالم عن الحالة الّتي كانت عليها مدينة القيروان قبل نكبتها، وانتقلت به إلى الحالة المضادّة عبر وصف مجريات الأحداث بدقائقها وتفاصيلها.